إشكاليات اللغة والإبداع في الترجمة الأدبية

د.الزاوي (بوزريبة) مختارية
معهد الترجمة- جامعة وهران 1- الجزائر

ملخص:
الحديث عن الترجمة ، حديث عن أنواع متعددة للعملية الترجمية ، ونستطيع القول أن أكثر مجالات الترجمة صعوبة وتعقيدا هو مجال الترجمة الأدبية المتعلق بتحويل نصوص أدبية مثل القصة ، الرواية ، المسرحية و الشعر من لغة إلى أخرى .ولاشك أن ما يميز النص الأدبي هو أسلوبه الخاص المليء بالصور والتعابير والاستعارات والكنايات التي يبقى انتقالها إلى نظام لغوي ، آخر أمرا معقدا دائما .

Résumé

Le thème de la traduction porte sur la diversité de l'opération traduisanet et nous pouvons ainsi dire que le domaine le plus compliqué dans cette opération est la traduction littéraire qui consiste en la traduction de textes littéraires à savoir roman, nouvelle, théâtre et poésie.

Le texte littéraire se caractérise par la spécificité de son style marqué par l'utilisation des figures , expressions et métaphores qui posent toujours des difficultés lors de leur transfert vers d'autres langues .

مقدمة

ساد الاعتقاد طويلا في العالم العربي – الإسلامي أن الترجمة هي "بيت الحكمة" لا غير ، باعتبار أن ثقافات كثيرة اعتمدت في بنائها و نهوضها كلية على نوع واحد تقريبا من الترجمة، يتجسد في ترجمة النصوص الفلسفية و العلمية ، التي بلغت أوجها مع حركة الترجمة في العصور الإسلامية الأولى مثل تلك التي بدأت مع عبد المالك بن مروان، وتطورت مع المأمون في القرن الثالث الهجري بتأسيس "بيت الحكمة"[*] (217هـ/832م).

و إذا كانت لحظة الترجمة سابقة على لحظة التأليف وفق ضرورة ثقافية شكلت بالنسبة لعدد كبير من الحضارات ، على غرار الحضارة الإسلامية و اليونانية و المسيحية ، حجر الزاوية في إنتاج الفعل الثقافي و الفكري و الفلسفي و العلمي ؛ فإن الأمر سرعان ما تحول وفق استراتيجية ثقافية جديدة تاريخيا إلى تبادل الأدوار للحظتين ،

[*] – إن أول مكتبة عامة هي مكتبة "دار الحكمة" أو خزانة الحكمة، التي وضع نواتها الخليفة العباسي هارون الرشيد، ثم نماها المأمون و قواها و أمدها بالكتب والمصنفات المختلفة حتى أصبحت من أكبر خزائن الكتب.. و تحولت في عصر المأمون إلى دار للترجمة، و إلى ما يشبه معهدا علميا كبيرا ...
لتفاصيل أكثر ينظر: مظفر الدين حكيم"علم الترجمة النظري " دار طلاس دمشق 1989 ص 30-31
روبير لاروز "في مفهوم الترجمة و تاريخها " ترجمة عبد الرحيم حزل ،في مجلة فكر و نقد ، دار النشر المغربية – الدار البيضاء 1999 العدد 22 ص 44.

فتحولت الترجمة إلى "قراءة للنص الأصلي، و تأويل له، يختلف باختلاف مترجميه و قرائه .إنها عملية إبداعية وفن لا فرق بينها و بين الكتابة إلا باعتبارها ليست كتابة نهائية ، و هي ممارسة لغوية و حاجة حضارية".[1]

واللافت للنظر أن الترجمة أخذت على عاتقها مهام سياسية ولاهوتية قبل أن تتحول إلى فعل أدبي وفلسفي وعلمي، بكلمة واحدة فعل ثقافي "فالآلهة و الملوك قد سبقوا الشعراء والكتاب. وليس هناك من شك في أن الترجمة المتعلقة بالخدمة(...) والترجمة الدينية سابقتان للترجمة الأدبية"[2] .فمنذ تاريخ طويل جدا كان الاهتمام كبيرا وبالغا بنقل المعنى من لغة إلى أخرى، بما في ذلك القيمة الأدبية للنص الحامل للمعنى .

وطوال هذا التاريخ المليء بالنصوص والمقالات، لم تكن اللسانيات حاضرة إلى جانب الترجمة، ولم يكن أي من اللسانيين الذين كانوا في الأصل مصدر فن الترجمة ليكرس أدنى مكان لفحص وتحليل عملية الترجمة على الرغم من أنها عملية لسانية بالأساس. الأدب المقارن وحده، وضمن توزيعه التقليدي للتخصصات الجامعية اهتم بالمشاكل التي تطرحها الترجمة ولكن دائما في علاقتها بالأدب. أما في مجال اللغات الحية، فلقد ظلت الترجمة تطرح بوصفها تمرينا للأعمال التطبيقية ذات طبيعة أدبية وليس لغوية[3] .

ولقد اعتبرت الترجمة لقرون عديدة تمرينا أدبيا وما كان يرتبط بها من طرق وتقنيات اعتبر من تخصص الأسلوبية و فقه اللغة[4]، رغم أن طرائق الترجمة ظل يتجاذبها على مر التاريخ، قطبان متصارعان هم الترجمة الدينية (ترجمة النصوص المقدسة) والترجمة الأدبية؛ وإذا كان القطب الأول قد اتسم بالحرفية حرصا على تبليغ ما اعتبر كلام الله، المشبع بالألغاز والمفعم بالأسرار تبليغا أمينا، فإن الترجمة الأدبية عكس ذلك ظلت تتأرجح بين التصرف (أي الترجمة الحرة) وبين المطابقة الحرفية للنص الأصلي .

وإذا كانت الترجمة بصفة عامة هي محور انشغالنا في هذه الدراسة، فإن الترجمة الأدبية تحديدا هي صلب الموضوع الذي نسعى إلى الإحاطة ببعض جوانبه، وهو ما دفعنا إلى طرح مسألة الترجمة في علاقتها بمفاهيم أخرى لها صلة وثيقة بالإشكالية الترجمية عموما وهي مفاهيم: الأدب، اللغة، الرواية، الشعر والمسرح أي بكلمة واحدة الإبداع الأدبي.

I –الترجمة الأدبية .. من النص إلى الإبداع

لا بد من الإشارة بدءا أن الحديث عن الترجمة، هو بالضرورة حديث عن أنواع متعددة للفعل الترجمي، تماما كما هو الحال بالنسبة للأدب والأجناس الأدبية. فالترجمة تنقسم وفق اعتياد تاريخي وإجرائي، إلى ترجمة حرفية و نجدها خصوصا في نقل النصوص العلمية و الرياضية و الفيزيائية، وحتى الدينية قديما وإلى ترجمة حرّة تجتهد في نقل النص إلى اللغة الثانية وفق إستراتيجية تكاد تكون إبداعية، وهذا النوع من الترجمة هو ما يدعى بالترجمة الأدبية، ووفق

1- عبد السلام الطويل "الأنا/ الآخر، بعض مظاهر القصور في ميدان الترجمة" في مجلة فكر و نقد العدد 22.ص74

2- إدمون كاري و آخرون "الترجمة و التلاقح الثقافي مطبعة فضالة المحمدية المغرب 1998 ص 174"

3- لمزيد من التفاصيل ينظر Georges Mounin « Linguistique et traduction » ED : Dessort et Mardaga. Bruxelles1976 P.71

4- روبير لاروز"في مفهوم الترجمة و تاريخها". العدد 22 ص 46

هذا المنظور نتصوّر أن الترجمة هي بالضرورة ترجمات متعددة ومختلفة، ويتجلّى ذلك التعدّد والتنوّع في ما يمكن أن نسميه بـ"أجناس الترجمة". ولا ينطبق هذا النعت إلا ضمن الترجمة الأدبية التي يدخل في إطارها ترجمة الشعر والرواية والمسرح، فتكون الترجمة في حالة مثل هذه عملية إبداعية بامتياز ، تماما كالإبداع الأدبي، فتصبح الترجمة والأبداع عمليتين توأمتين. يقول أو كتافيوباث في هذا الصدد: "الترجمة لا تختلف في كثير من الأحيان عن الإبداع،(...) فهناك مد وجزر بينهما متواصل وتلقيح متبادل ..."[5] .

ولا شك أن أي حديث عن الترجمة الأدبية يجرنا لا محالة إلى تحديد مفهوم "الأدب" و طبيعته ، ذلك أن الترجمة الأدبية ارتبطت دوما بالإشكاليات التي يطرحها النص الأدبي. و قبل أن نحدد مفهوم "الأدب"لا بد من الإشارة إلى مفهوم آخر وهو مفهوم "الأدبية""Litterarité" [6] الذي نعتقد أنه يرتبط ارتباطا وثيقا بالترجمة الأدبية . فأدبية النص شرط أساسي بين ما هو أدبي و ما غير أدبي .وهي أيضا شرط أساسي لنعتبر هذه الترجمة أو تلك عملا إبداعيا وهو ما حدا بأحدهم إلى الحديث عن" أدبية النص المترجم".[7]

يقول الباحث ذاته: "يعسر في نظرنا طرح إشكالية الترجمة الأدبية طرحا مباشرا

وذلك لأنها تتصل بمجال الأدب الذي تعددت تحديداته منذ القديم (...) إننا نرغب أن نحدد مسألة أدبية النص الأدبي وذلك لأننا نعتبر أن هذا التحديد يساعد على طرح إشكالية ترجمة النصوص ذات الطابع الأدبي"[8] .

يبدو الحديث إذن مشروعا عن الترجمة الأدبية ، بوصفها مفهوما قابلا للتمحيص والترويض، وفقا لأفق بحث واسع المعاني والدلالات ، يشمل إلى جانب موضوع الحديث والدراسة، مفاهيم قد تبدو جانبية لكنها في واقع البحث ضرورة إجرائية بالنسبة للإشكالية وسير الدراسة. والمفاهيم التي نعتقد أن طرحها من شأنه أن يسلط الأضواء الكاشفة على الترجمة الأدبية ويجعلها أكثر ترويضا لما نحن بصدده: هي مفهوم الأدب، واللغة والثقافة والشعر والرواية والمسرح؛ وهي المفاهيم التي سنحاول عرضها في علاقتها بالترجمة كما يلي:

1- الأدب و الترجمة:

لا نزعم في هذا الحيز أن نقدم بحثا مفصلا في مفهوم الأدب وما يرتبط به من مفاهيم أخرى مثل النص والأدبية وما إلى ذلك، بل إن غرضنا هنا هو طرح مسألة الأدب أو النص الأدبي في علاقته بالترجمة وذلك في سياق إشكالية البحث التي نحن بصدد دراستها، اعتقادا منا أن الكشف عن بعض جوانب هذا المفهوم، من شأنه أن

5- أوكتافيوباث : "الترجمة: الأدب و الأدبية " ترجمة إدريس المصمودي و محمد القاضي . في مجلة فكر و نقد.ص70

6- يعرف جورج مونان "الأدبية" في معجم اللسانيات على أنها "موضوع ما يمكن أن ننعته بعلم الأدب ، إنها تتحدد من خلال البنية والوظيفة الخاصة بالخطاب الأدبي (...) إن الادبية بالنسبة للأدب هي مثل اللغة بالنسبة للكلام عند سوسور ، بمعنى آخر هي النسق المشترك و التجريدي للأعمال الأدبية"
« la litterarité : objet d'une hypothétique science de la litterature, elle se définit par la structure et la fonction propre au discours litteraire(…) La litterarité serait à la litterature ce que la langue est à la parole chez Saussure , c "est a dire se que toutes les oeuvres de la litterature ont en commun dans l"abstrait comme système »
Georges Mounin dictionnaire de la linguistique PUF Paris 1974 P 205-206

7 ينظر المنصف الجزار "الترجمة الأدبية" في " الترجمة و نظرياتها"، إعداد مجموعة من الأساتذة الجامعيين، المؤسسة الوطنية للترجمة و التحقيق و الدراسات "بيت الحكمة" ، تونس 1989 ص110.

8- نفس المرجع و الصفحة.

يسلط الأضواء على الترجمة الأدبية بوصفها فعلا أدبيا وإبداعيا في آن واحد ونلاحظ هنا مع رولان بارت ROLAND BARTHES أن مفهوم الأدب"مفهوم عائم ، شديد الاتساع، ثم أنه تطور كثيرا عبر التاريخ .(...) الكلمة ذاتها حديثة العهد ولم تظهر إلا مند أواخر القرن الثامن عشر. وفي ما قبل كان الحديث عن الفنون الأدبية lettres وعن الآداب الجميلة وكان هذا يعني شيئا آخر"[9] .

إن الأدب بهذا المعنى مشروط بأطر تاريخية واجتماعية تجعل منه مفهوما يخضع لا محالة، للزمان والمكان فيقول بارت دائما : "ينبغي أن نضع المسألة في إطارها الإجتماعي، في إطار الحياة الاجتماعية وهذا أمر بالغ الأهمية لأن الأدب ليس موضوعا خارج الزمان، ليس قيمة خارج الزمان، وإنما مجموعة من الممارسات والقيم المشروطة بمجتمع معين[10] .

إذا كان هذا الكلام يقال عن الأدب بوصفه فعلا ثقافيا منتجا للمعاني الرفيعة والجميلة، فإن الترجمة الأدبية تخضع بدورها لنفس المقاييس والمعايير بوصفها هي الأخرى فعل ثقافي وحضاري ينقل ويروج المعاني الحضارية والإنسانية الكبرى، فتكون الترجمة بهذا المعنى الفضاء الآخر الأكثر اتساعا وشساعة للأدب.

يقول جوزي لامبر في هذا الصدد "بما أن الترجمات تشغل وظائف محددة داخل الآداب و فيما بينها، يصبح من اللازم أن يقود تحليل هذه الوظائف أو تحليل الترجمات نفسها إلى قلب الآداب، وقلب وظائفها (...) إن الترجمات لا تشكل سوى أحد قطاعات العلاقات الأدبية العالمية، أو في أحسن الأحوال نوعا من الاستيراد الأدبي "[11] . ولكننا يجب أن نتساءل هنا عن طبيعة الأدب وطبيعة الترجمة، والعلاقة الممكنة بينهما.

فالأدب هو خطاب ذي بنية رمزية وجمالية ولغوية في غاية التعقيد، يطرح دون أدنى شك صعوبات قد تصل إلى درجة الاستحالة أمام المترجم، فتكون بذلك الترجمة مشروعا لا يكتمل أبدا وحلما بعيد المنال، والمترجم بهذا المعنى يكون كمن يستحوذ على ملكية الغير، فيكون دائما في موقع الباحث عن شرعية لما يفعل، ولا شك أن أجمل مسوغ وقانون بالإمكان أن يمده بتلك الشرعية هو "إبداع" النص الأدبي الأصلي مرة ثانية. وإذا كان المنظر الكبير للأدب جيرار جينيتGERARD GENETTE يحسم مسألة الترجمة الأدبية بالسلب جملة وتفصيلا عندما يقول :"من الأحكم للمترجم دون شك أن يتقبل كونه لا يقوم سوى بفعل ضار، وأن يحاول مع ذلك القيام به على احسن وجه ممكن، مما يعني غالبا القيام بشيء آخر"[12] .فإن باحثا آخر و هو فورطوناطو إسرائيل FORTUNATO ISRAEL، من معهد الترجمة في باريس (E.S.I.T) يحاول الرد بالإيجاب على ما يذهب إليه جينيت فيقول:"إن مترجم الأدب يقوم دائما بـ "شيء آخر" ما دام هناك خرق للحرفية، وما دام هناك تحويل و إنزياح .أي

9- رولان بارت "درس السيميولوجيا" ترجمة عبد السلام بنعبد العالي ، دار طوبقال الدر البيضاء المغرب 1986 ص 34.

10- نفس المرجع و الصفحة.

11- جوزيه لامبير "الترجمة" ترجمة حسان محمد عبد الفتاح في مجلة فكر و نقد عدد 10.ص116.

12- جيرار جينيت في كتابه" طروس " الصادر ضمن منشورات سوي باريس 1982 ، ورد في فورطوناطو إسرائيل "الترجمة الأدبية": تملك النص " ترجمة مصطفى النحال في مجلة فكر و نقد العدد 10.ص.129.

بعبارة أخرى تملك"[13] . هكذا إذن تصبح الترجمة الأدبية كتابة قائمة بذاتها تكاد توازي الكتابة في نصها الأصلي، فهي تقيم لنفسها صرحا لغويا جديدا بكل ما يتطلبه ذلك الصرح من استعارة ومجاز وصور بلاغية وجمالية لينتهي في الأخير إلى نص جديد على الرغم من أنه يؤول إلى نص سابق ويحيل عليه. والمترجم بهذا المعنى يضع نفسه في علاقة خاصة وجد معقدة مع النص الأدبي والأدب بصفة عامة. فهو بداهة ممارس ماهر للكتابة، يعي تمام الوعي إستراتيجيات الكتابة وتقنيات الترجمة، حتى تسهل عليه مغامرة الإبداع.

قد تكون المغامرة لاحقة لمغامرة سابقة، ولكن "إبداعيتها" و"شعريتها" "أدبيتها" وتجعل منها "نصا" جديدا قائما بذاته، ولكن دون أن تنسى أو تفقد وعيها بالإحالة على مغامرة سابقة ونص سابق . وفي هذه العملية والعلاقة المعقدة كثير من اللؤم والدهاء المشاكس، ذلك "أن المترجم حسب "لادميرال LADMIRAL" ينظر إلى الأدب فقط عبر ما يختاره من جوانب وملامح يخضها لمرآة عاكسة ومكبرة لتفاصيل ضرورية لتمكينه من الإقناع".[14]

"وهذا المعنى تصبح الترجمة الأدبية استراتيجية قائمة بذاتها، ظاهرها الترجمة وباطنها الكتابة والإبداع، ويكون المترجم شاهدا وفاعلا في آن واحد فهو شاهد على نص سابق، وفاعل ومبدع لنص لاحق مع ضرورة الوعي والالتزام بمسافة معينة تفرضها اللغة والثقافة والجنس الأدبي على المترجم، حتى يكون أمينا للنص السابق ومبدعا لنص في حلة لغوية جديدة. وهذا الأمر يفرض نفسه على نوع معين من الترجمة الأدبية وهي ترجمة الشعر لما لهذا النوع من خصوصية معقدة ومركبة جدا، تجعل مهمة المترجم محفوفة بكثير من المخاطر والصعوبات. يقول الدكتور محمد مفتاح في هذا الصدد: "فعلى مترجمه (أي الشعر) أن يراعي المضمون والبنية والشكل والصورة والرموز والأصوات؛ على أن الخطاب الشعري تهيمن فيه بعض العناصر على الأخرى تبعا للظروف التاريخية والمذاهب الفنية والسياق العام.فقد شاع حينا من الدهر شعر المضمون، وأنتشر حينا آخر من الزمان شعر الشكل، وركز أحيانا على الصوت ومزج بين اللغة والرسم. إن الأهم هو النظر إلى مهيمن النص ليبرز في الترجمة ، لأن محاولة ترجمة كل المكونات الشعرية معجزة لا يمكن أن ينهض بها أحد ."[15]

ولا شك في أن الترجمة الأدبية في اختلافها عن الترجمة العلمية والترجمة السياسية والدينية وغيرها ، تفرض استراتيجية معينة في الكتابة تستدعي بدورها الانتباه إلى مفاهيم أساسية مثل مفهوم "النص" ومفهوم "الكاتب" صاحب النص ومفهوم "المتلقي" قارئ النص أو مترجمه. والمترجم الأدبي في مثل هذا يكون مطالبا بالانتباه إلى "مقاصد صاحب النص واستراتيجيته و(...) مقاصد النص واستراتيجيته.

فمقاصد صاحب النص تحدد الجنس والأنواع والأهداف، ومقاصد النص تجعله ينظم نفسه وينمو تلقائيا ويتناسل ويحيل على نفسه. على أن هناك عنصرا ثالثا صار يؤخذ في الحسبان وهو القارئ –المتلقي أو المترجم ، إذ لم

13- فورطوناطو إسرائيل نفس المرجع و الصفحة

14- ينظر

J.R LADMIRAL: « Traduire : Théorémes pour la traduction » .ED petite bibliothèque, payot paris p 110

15-مفتاح محمد :"التشابه و الاختلاف، نحو منهاجية شمولية" المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء 1996 ص 201-202

يبق ذلك التصور الذي كان يرى أن المعاني معطاة في النص، وأن ليس على المحلل أو المترجم إلا أن ينقلها إلى الناس كما هي، على أن هناك تصورا يسعى جاهدا ليحل محله وهو أن النص ليس إلا قادحا لبناء معان من قبل المتلقي أو المترجم."[16].

نستنتج مما سبق أن ثمة وضعا خاصا و متميزا ينفرد به المترجم الأدبي. صحيح أنه لا يدعي لنفسه موقع مبدع النص الأصلي ذلك الموقع الذي تصدر عنه كتابة ذات طبيعة نسميها عادة وفقا لمفاهيم معهودة: رواية ، أو شعرا أو مسرحا...إلخ، ولكنه يتموقع –لا محالة– ضمن استراتيجية الكتابة والإبداع. وعندما نقول استراتيجية فإننا نقصد في النهاية البوح و الإفصاح عن أشياء، والسكوت والتكتم عن أخرى في آن واحد من طرف الكاتب أو المبدع. وفي هذا الصدد يلاحظ أحد الباحثين بحق بشأن ترجمة المستشرق الفرنسي انطوان جالان ANTOINE GALLAND لـ"ألف ليلة وليلة" قائلا:"لقد بذل جالان جهدا كبيرا في ترجمة النص العربي إلى اللغة الفرنسية، إذ استطاع أن ينفذ إلى روح "الليالي" مطوعا لغتها لقبول المعاني العربية قبولا لا يظهر فيه الشذوذ أو النشاز ...(...) لقد تصرف جالان في ترجمته حتى يلائم ذوق عصره.

ومن الواضح للغاية أنه كان أديبا قديرا وبصيرا بفن القصة، عرف كيف يبسط حكاياته للجمهور الفرنسي في ثوب أنيق... ولعل من مظاهر الروعة في هذه الترجمة أن خلدت الجان والعفاريت الشرقية التي علمها كيف تنطق اللغة الفرنسية إسمه في تاريخ الأدب إلى الأبد"[17].

2– ترجمة الشعر والمسرح:

إن استراتيجية الكتابة والابداع التي ينخرط ضمنها المترجم، تفرض عليه وضعا صعبا ومعقدا عندما يتعلق الأمر بترجمة الشعر الذي يكتسي طابعا خاصا من بين الأجناس الأدبية. فالشعر باختلافه وتميزه بلغته وخصائصه الفنية وبنيته النصية ...إلخ، يفرض على المترجم الأدبي جملة من الصعوبات والعقبات تحول ترجمة الشعر إلى حالة مستعصية، بل وحتى مستحيلة. "فمهما تكن براعة المترجم ، فإن الشعر يأبى النقل، وإذا ما حول عن لغته الأصلية فإنه يفقد قيمته و يصير في اللغة المنقول إليها نصا ممسوخا مشوها.إذا كانت ترجمة الشعر عملية عبثية ميئوسا منها فليس ذلك راجعا إلى المترجمين، وإنما إلى طبيعة الشعر نفسه الذي لا يحتمل التحويل"[18] .

وهذا يعني أن ترجمة الشعر هي الأشق بين كل الترجمات الإبداعية، لأننا ملزمون فيها بالتضحية بشيء ما في سبيل ربح شيء آخر. وإذا كانت اللغة بحد ذاتها قاصرة على نقل الأحاسيس والعواطف والرؤى فلنتخيل ما تكون عليه الحال عند مرور هذه الأحاسيس والعواطف عبر لغتين، فالانحراف الشعري (أو الإنزياح أو الغرابة) حدث هنا مرتين.. الأولى عند التعبير عن هذه الأحاسيس والعواطف بلغة تقتصر على بلوغ الهدف والثانية عند انتقال هذه الأحاسيس من لغة إلى لغة عبر إنسان قد لا يكون بالضرورة شاعرا .

16- نفس المرجع و الصفحة .

17- د. شريفي عبد الواحد"شهرزاد في الأدب الفرنسي" في مجلة المترجم ، عدد واحد يناير –جوان 2001 وهران ص41 –43 .

18- عبد الفتاح كليطو:"بين الفلسفة و الشعر" في مجلة فكر و نقد، عدد 22 ص 82.

ويقول الجاحظ في كتابه "الحيوان": "والشعر لا يستطاع أن يترجم، ولا يجوز عليه النقل، ومتى حول تقطع نظمه وبطل وزنه وذهب حسنه، وسقط موضع التعجب"[19]. ذلك أن الشعر "إنزياح عن معيار هو قانون اللغة، فكل صورة تخرق قاعدة من قواعد اللغة أو مبدأ من مبادئها ."[20]-

وقد نكتفي مع رومان جاكوبسون Roman Jakobson بإجازة نوع من "التحويل الخلاق" والإبداع الجديد مع التمسك بموقف استحالة ترجمة الشعر.. فهو يقول "إن الشعر أصلا غير قابل للترجمة ، وما هو ممكن هو التحويل الخلاق: تحويل داخل اللغة، تحويل شكل شعري إلى آخر، تحويل لغة إلى أخرى إنه أخيرا تحويل بين سيميائي "Intersémiotique" من نسق من الدلائل إلى نسق آخر"[21].

« La poésie , par définition est intraduisible .Seule est possible la transposition créatrice: transposition à l'intérieur d'une langue – d'une forme poétique à une autre – transposition d'une langue à une autre , ou finalement transposition intersémiotique – d'un système de signes à un autre… »

أما ترجمة المسرح فهي تختلف اختلاف كليا عن ترجمة الأجناس الأدبية الأخرى وخاصة الشعر، ذلك أن المسرحية كتبت لتمثل في المقام الأول، أي على المترجم أن يضع في الحسبان المتفرج، فيحرص على نقل ما يقابل ذلك في لغة الهدف من ألفاظ ومخارج وتنظيم يتلاءم والموقف التمثيلي .فالمترجم هنا يعتبر فنانا بدوره لأنه مطالب بنقل العمل المسرحي كما جاء في لغته الأصلية. وفي هذا الصدد يرى جورج مونان GEORGES MOUNIN أنه على:" المترجم أن يترجم القيمة المسرحية الحقيقية، قبل أن يهتم بنقل القيمة الأدبية و الشعرية "[22].

« ..il faut en traduire la valeur proprement théatrale avant de se soucier d'en rendre la valeur littéraire ou poétique »

وبهذا المعنى غالبا ما تتحول الترجمة في المسرح إلى اقتباس حيث يكون المترجم مدعوا إلى استبدال الشحنات الثقافية والدلالات الرمزية بما يتلاءم مع خصوصية وثقافة الجمهور المتلقي للنص المسرحي المترجم .

II–الترجمة و إشكاليات اللغة:

قبل الحديث عن العلاقة القائمة بين الترجمة واللغة، لا بد من كلمة عن ذلك الارتباط الذي أصبح شبه روحي بين اللغة والأدب وكذا المسافة المنهجية بينهما التي ما فتئت تزودنا بقناعات علمية متجددة بشأن اشتغال

19- أورده عبد الفتاح كيليطو في نفس المرجع ص 81 .

20- جان كوهن "بنية اللغة الشعرية" ترجمة محمد الولي و محمد العمري ، دار توبقال المغرب 1986 ص 6.

21-ينظر

ED Minuit Paris 1963 p 86 (les fandation du langage) "Essais de linguistique générale" :ROMAN Jakobson

22- ينظر Georges mounin « linguistique et traduction » OP .Cit P164

اللغة في الخطاب الأدبي، واختلاف وتغير ذلك الاشتغال في خطابات أخرى. ولا نملك في هذا الحيز إلا أن نحيل على جوليا كريسطيفا Julia Kristeva عندما تقول:"إن الفعل المسمى أدبيا يقود إلى الغرابة الفعلية حيال ما يفرض أن تكونه اللغة، أي كونها حاملا للمعنى وذلك عبر عناده في رفض أية مسافة مثالية إزاء ما يقوم بالدلالة. في غرابة قربه منا وشدة غرابته عن مادة خطاباتنا وأحلامنا يبدو لنا "الأدب" اليوم الفاعل الذي يستوعب كيفية اشتغال اللسان ويشير إلى ما سيكون له القدرة على تغييره مستقبلا "[23] .

اللغة إذن هي الوعاء الجامع المانع لجميع أشكال التعبير الإبداعية، وتتحول تلك الأشكال إلى ما يشبه الصدى الذي يرجع قويا ومكتنزا بالدلالات والمعاني. و يمكن اعتبار تلك العلاقة بين اللغة والأدب والإبداع عموما علاقة مخبرية تجعل من الأدب ورشة للاختبار والمراجعة، ومن اللغة فضاء لفتوحات إبداعية جديدة. ضمن هذا السياق فإننا نصدر منذ البداية عن القول الذي يذهب دفعة واحدة إلى اعتبار الترجمة إشكالية لغوية بالأساس، لما لها من وضع و انشغال يكاد يحيل على اللغة جملة و تفصيلا وهذا ما يؤكده أحد الباحثين بقوله: "إن إشكالية الترجمة(...) ناشئة من طبيعتها اللغوية والتي تقتضي تعاملا مع اللغة. فاللغة نظام يميز مجتمعا من المجتمعات(...) وبالتالي، ترجع إشكالية الترجمة إلى حرصها على خصوصية اللغة من حيث هي ثقافة وفكر وسلوك "[24].

وإذا كان لنا أن نطرح هنا مسألة الترجمة عموما، و لترجمة الأدبية بشكل خاص، فإننا مدعوون لا محالة إلى طرحها بإشكالية لسانية تتناول العديد من الصعوبات النظرية والإجرائية، ذلك أن الانتقال من لغة إلى أخرى هو في حد ذاته إشكالية لغوية وظاهرة تستدعي التوقف والانتباه. فامتلاك لغة واحدة هو في حد ذاته حالة تقترب من الاستحالة، فكيف إذا تعلق الأمر بأكثر من لغة واحدة، ولا نملك في هذا المضمار إلا أن نتساءل بحق بمعية أحد الباحثين عندما يتملكه السؤال قائلا:"هل يستطيع المرء امتلاك لغتين، هل بإمكانه أن يبرع فيهما معا؟ ربما لن نهتدي إلى جواب إلا إذا أفلحنا في الإجابة عن سؤال آخر:هل يمتلك المرء لغة من اللغات ؟"[25]. ويضيف الباحث متسائلا في ذهول ودهشة لعله يجد ما يشفي غليل أسئلته فيقول: "أتذكر أنني سمعت كلاما لم أعثر بعد على مرجعه، يصف فيه أحد القدماء علاقته بالعربية فيقول:"هزمتها فهزمتني، ثم هزمتها فهزمتني.."مشيرا إلى أن علاقته بها متوترة، وأن الحرب سجال بينهما مرة له و مرة عليه، ولكن الكلمة الأخيرة لهذه الكائنة الشرسة التي تأبى الخضوع والانقياد (...)إذا كان هذا حال المتكلم مع لغة واحدة، مع لغته فكيف حاله مع لغتين أو أكثر؟ كيف ينتقل من هذه إلى تلك؟ كيف يتصرف بينهما، وكيف يتدبر أمره مع الترجمة المستمرة التي يمارسها"[26] .

لا شك أن الطرح الإشكالي اللساني للترجمة من الإشكاليات التي تفرض نفسها بإلحاح على الباحث، على الرغم من أن حقل الترجمة يتميز بملامسته حقولا معرفية وعلمية عديدة، ولنا بالتالي أن نتساءل مع جورج مونان

-23 جوليا كريسطيفا : "علم النص" ، ترجمة فريد الزاهي ، دار توبقال ط2 الدر البيضاء(المغرب)1997 ص 7.

-24 نصر الدين خليل "الفعل الترجمي بين الممارسة اللسانية و التلقي " في مجلة المترجم ص.119-120.

-25 عبد الفتاح كيليطو "بين الفلسفة و الشعر" في مجلة فكر و نقد العدد 22 -77 .

-26 نفس المرجع و الصفحة .

GOERGES MOUNIN عما إذا كان من الواجب أن نعتبر الترجمة فرعا من الألسنية. فقد "لاحظ كل من حاول حتى السنوات الأخيرة، درس المشكلات التي تثيرها عملية الترجمة في مجملها، واقعا مدهشا فبسبب اعتبار الترجمة فئة من الظواهر الخاصة أو ميدانا نافذا للبحوث (...) بقيت قطاعا غير مستغل، بل مجهولا وكانت تعاني مما يعاني منه عدد من حقول المعرفة الإنسانية.فوجودها على ملتقى جملة علوم لاسيما الألسنية والمنطق وعلم النفس والتربية حال دون اعتبارها مادة مستقلة للبحث في أي من هذه العلوم"[27] .

من هنا كان لا بد من الانتباه إلى الصعوبات النظرية والإجرائية التي عادة ما تطرحها بوصفها فعلا لسانيا يقتضي وجود أصل وهدف وهي صعوبات وإن كانت ذات طبيعة لغوية إلا أنها في غالب الأحيان وخاصة عندما يتعلق الأمر بالترجمة الأدبية، تكون صادرة عما يسمى حديثا بـ"متن اللغة" "Métalangage" والمقصود هنا أن اللغة يمكن أن تستعمل لا في التحدث عن حكاية أو خرافة، بل وفي التحدث عن الطريقة التي تتحدث بها عن الحكاية والخرافة. بمعنى آخر فإننا نستعمل اللغة للتحدث عن اللغة، أو استعمال مجموعة من الرموز للتكلم عن الرموز اللغوية نفسها[28] وهنا فإن الترجمة تجد نفسها أمام مستويين من اللغة، ويكون المترجم مطالب بوضع مسافة بين اللغة و"متن اللغة" ويكون بالتالي "يقظا دوما أمام الحقيقة القائلة أن استعمال الرموز اللفظية يمكن أن يتحول فورا من اللغة إلى متن اللغة. وفضلا عن ذلك، تعتبر ترجمة النصوص الخاصة بمتن اللغة، أمرا عسيرا للغاية لأن "العوالم" اللغوية (أي التراكيب النحوية لشتى اللغات)التي تمدنا بالمدلولات اللغوية تختلف فيما بينها اختلافا جوهريا كبيرا عن "العوالم" الثقافية التي تمدنا بالمدلولات غير اللغوية"[29] .

يتضح إذن أن الترجمة في موقع الاختبار اللغوي تفرض وضعا إشكاليا جديدا يحمل من الصعوبات ما لا يمكن فكها إلا إذا ربطنا فعل الترجمة بالدرس اللساني .فتكون الترجمة لغة / موضوعا، تطرح ليس بالضرورة إشكاليات النص اللغوي الأصلي بل إشكاليات جديدة عادة ما تكون مقرونة بصعوبات نظرية و إجرائية جديدة و تكون مهمة اللسانيات بالمقابل هي "توضيح إشكاليات الترجمة التي تعترض المترجم من الناحية الألسنية. بعبارة أخرى يمكن القول أن اللسانيات تتعامل مع الترجمة بوصفها قوانين إجرائية ينبغي أن يحترمها النص المترجم من حيث مستويات اللغة المعجمية و النحوية، والمورفولوجية والصوتية و الأسلوبية التي يخضع لها النص الأصلي، وإنما غاية اللسانيات هو طرح المشكلات اللسانية المتعلقة بالترجمة عند الانتقال من اللغة الأصل إلى اللغة الهدف"[30].

نخلص إذن عبر هذه السلسلة من الملاحظات المرتبطة بالترجمة في علاقتها باللغة، واللغة في علاقتها بالأدب، واللغة في علاقتها باللغة (الأصل / الهدف) إلى أن الأمر يتعلق في النهاية بمسألة في غاية الأهمية، وهي تحول الدليل في

27- جورج مونان"المسائل النظرية في الترجمة " ترجمة لطيف زيتوني دار المنتخب العربي بيروت 1994 ص 57

28- ينظر يوجين نيدا :"نحو علم الترجمة" ترجمة ماجد النجار ، مطبوعات وزارة الإعلام، العراق 1976 ص118.

29- نفس المرجع ص 119.

30- نصر الدين خليل "الفعل الترجمي..." .120.

علاقته بالمعنى إذ يمكننا أن نميز مع رومان ياكوبسون ROMAN JAKOBSON ثلاثة أنواع من الترجمات للدليل:

1- الترجمة داخل اللغة (INTRALINGUALE)، وهي تأويل الدلائل اللغوية بواسطة دلائل أخرى من اللغة نفسها .

2- الترجمة بين اللغات(INTERLINGUALE)، وهي تأويل الدلائل اللغوية بواسطة لغة أخرى.

3- الترجمة بين السميائية (INTERSEMIOTIQUE)، وهي تأويل الدلائل اللغوية بواسطة أنسقة من الدلائل غير اللغوية[-31].

1- « La traduction intralinguale ou reformulation, consiste en l'interprétation des signes linguistiques au moyen d'autres signes de la même langue .

2- La traduction interlinguale ou traduction proprement dite consiste en l'interprétation des signes linguistiques au moyen d'une autre langue .

3- La traduction intersemiotique ou transmutation ,consiste en l'interprétation des signes linguistiques au moyen de systèmes de signes non linguistiques . »

إن هذا التصنيف بفعل الترجمة و المستند بالأساس إلى خلفية لسانية، يطرح أمامنا، كما ذكرنا أعلاه إشكالية انتقال الدليل[32]عبر فعل الترجمة وما يخلفه من تبدل وانتقال في المعنى أو الوهم بذلك وبقاء المعنى على ما هو عليه على الرغم من أن تحول الدليل وانتقاله عبر أحد أصناف الترجمة المذكورة أعلاه يكون قد تم بالفعل .[33]

-31 ينظر Roman Jakobson OP.Cit 79.

-32 الدليل اللساني عند سوسور Saussure ، وحدة نفسية ذات وجهين ...و هذان العنصران مرتبطان ارتباطا وثيقا و يتطلب أحدهما الآخر ... و نطلق على هذا التأليف بين التصور Concept و الصورة السمعية Image Acoustique الدليل ...و نقترح الاحتفاظ بكلمة دليل لتعيين المجموع، و تعويض التصور و الصورة السمعية ، على التوالي بمدلول و دال".

« Le signe linguistique est donc une entité psychique a deux faces , (…) C'est deux éléments sont intimement unis et s''appelent l''un l''autre …Nous appelons signe la combinaison du concept et de l'image acoustique…Nous proposons de conserver le mot signe pour désigner le total, et de remplacer concept et image acoustique respectivement par signifié et signifiant ».

لمزيد من التفاصيل ينظر. Ferdinand de Saussure : « Cours de linguistique générale ED Payot Paris 1963 P99.

-33 يعطي رومان جاكبسون مثلا على ذلك قائلا : "خلال السنوات الأولى للثورة الروسية، دعا بعض الحالمين المتعصبين ...إلى مراجعة جذرية للغة التقليدية ، و قد طالبوا بحذف عبارات واضح خداعها ، مثل "طلوع الشمس" و "غروبها" .و مع ذلك فنحن مازلنا نستعمل هذا التصوير البطليموسي دون

III– الترجمة بين الثقافة والمثاقفة:

ثمة مسألة أخرى تسترعي الانتباه تتمثل في البعد الحضاري – الثقافي للترجمة، فهي بالإضافة إلى كونها فعلا لغويا وتأويلا إبداعيا متجددا، فإنها فعل ثقافي وحضاري بامتياز، بل نذهب أبعد من ذلك ونقول إن الترجمة هي المعيار الحقيقي والمقياس الأساس لتقدم أو تأخر أية ثقافة أو حضارة "فالثقافة ذات المستوى الرفيع لا تستغني عن الترجمة كيف ما كان الأمر."[34].

ومن المعروف في هذا المجال أن العرب والمسلمين لم يعوا دور النقل عن اليونانية إلا بعد ما تطورت التساؤلات المطروحة حول قضايا فلسفية كبرى[35] مثل القضاء والقدر والنفس و الماهية والوجود وغيرها. زد على ذلك أنهم لم يهتموا بالتنجيم إلا بعد إدراكهم لضرورة الحساب ومبادئ القواعد في الحساب، الذي كان يستعمله الفقهاء في العبادات والمعاملات..ولهذا كله يجب الانتباه إلى أن التراجع في حركة الترجمة يعبر دائما عن تراجع ثقافي[36].

ووفق هذه النظرة، فإن الترجمة كانت في لحظات تاريخية كبرى سابقة على التأليف، بمعنى أنها كانت وربما لازالت هي المحفز والدافع على الكتابة والتأليف[*]... وسواء تعلق الأمر بلحظة الترجمة أو لحظة التأليف، فإن كلا اللحظتين تستدعيهما دوما إرادة وضرورة ثقافية غالبا ما تكون مقرونة بضرورة وحتمية الانفتاح على العالم[**]

إن الترجمة بهذا المعنى نقل و تحويل للمعاني الثقافية و الحضارية على الرغم من كل الأسئلة و التحفظات المطروحة بشأنها، كاستحالة الترجمة أو إمكانيتها... إلخ. فما دام الأمر يتعلق بفعل ثقافي.. بفعل الترجمة .. بفعل الكتابة، فإن واقع الحال هو إنتاج المعنى وانتقال الدلالات عبر أكثر من لغة وأكثر من ثقافة "والترجمة كنقل لمحتوى دلالي، من شكل في الدلالة إلى آخر، عملية ممكنة.

أن يستدعي ذلك رفض المذهب الكوبرنيكي كما يسهل علينا أن ننتقل من حواراتنا اليومية حول الشمس الطالعة أو الغاربة إلى تمثل دوران الأرض لأنه بكل بساطة يمكن لكل دليل أن يترجم إلى دليل آخر يبدوا لنا أدق و أكثر تصورا " .

« dans les premières années de la révolution russe , il se trouva des visionnaires fanatiques pour plaider (…) en faveur d"une révision radicale du langage traditionnel et en particulier pour réclamer la suppression d'expressions aussi trompeuses que le « lever » ou le « coucher » du soleil . Pourtant nous continuons à employer cette imagerie ptolémaïque sans se que cela implique la rejet de la doctrine coperniciennes , et il nous est aisé de passer de nos conversations courantes sur le soleil levant ou couchant à la représentation de la rotation de la terre , tous simplement parceque tout signes peut se traduire en un autre signe dans lequel il nous apparait plus pleinement developpé et précisé. »

لمزيد من التفاصيل ينظر **Roman Jakobson** OP.Cit 81.

[34] محمد علال سيناصر في ندوة "الترجمة و التلاقح الثقافي " م.س56.

[35] لمزيد من التفاصيل ينظر كتاب ندوة فكرية "حول الترجمة في الوطن العربي". مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2000 ص52

[36] محمد علال سيناصر في ندوة "الترجمة و التلاقح الثقافي " م.س نفس الصفحة.

[*] يلاحظ الدكتور عبد الواحد شريفي بصدد الأثر الذي أوقعته ترجمة "ألف ليلة و ليلة" إلى اللغة الفرنسية قائلا: "الحق أن هذه الترجمة قد خلفت صدى قويا في الأوساط الفكرية و الأدبية في عصر التنوير...كانت تأثيراتها قوية و متنوعة ...و لقد قادت هذه التأثيرات في بداية الأمر، إلى ظهور سلسلة من الأعمال المقلدة للحكايات الشهرزادية (IMITATION)".ينظر بالتفصيل "شهرزاد في الأدب الفرنسي" م.س46.

[**] يلاحظ أحد الباحثين قائلا: "تبقى الترجمة ضرورة بالنسبة لمختلف الحضارات، فقد ترجمت الحضارة اليونانية تراث الشرق القديم (من حساب وفلك و زراعة)، وترجم الرومان عن الإغريق آدابهم وفلسفتهم. وترجم العرب عن الإغريق و الرومان و الفرس والهنود، هذا إذا حصرنا الاهتمام في التجارب القديمة." ينظر: عبد السلام الطويل : "الأنا / الآخر، بعض مظاهر القصور في ميدان الترجمة" في مجلة فكر و نقد عدد 22 م.س73.

صحيح أنها تطرح بعض الصعوبات، ما دامت تريد أن تضع نصا يقول "الشيء نفسه" و"الغاية نفسها"، ولكنها عملية ممكنة"[37]. بل هي عملية ضرورية في الحوار بين الثقافات والتواصل بينها. والمترجم بهذا المعنى كاتب ومبدع ومحترف في صناعة اللغة، في آن واحد. ذلك أن "مهمة المترجم و قيمته تتجليان في مدى قهره للصعوبات التي يطرحها تعدد اللغات، و تباين الثقافات وذلك بأن ينتج نصا يكون طبق الأصل. مهمته أن يقهر المسافة التي تفصل النص عن ترجمته، والأصل عن نسخته، وأن يمحو إسمه ليسمح لكاتب النص الأصلي أن يتكلم بلغة أخرى دون أن يفقد هويته. ويريد المترجم أن يكتب النص باسم كاتبه، أن يكتبه دون أن يوقعه، يريد أن يتدخل دون أن يتدخل، وأن يظهر ليختفي."[38].

إن انتقال النص من لغة إلى أخرى يقتضي أول ما يقتضي استيعاب المترجم للخلفيات والخصوصيات الثقافية التي تؤطر النص و تمنحه تلك المنظومة من الدلالات والرموز، فالثقافة بهذا المعنى شأنها شأن اللغة هي التي تمنح النص صفته الإبداعية وتعطي لفعل الترجمة مشروعية القيام والتحويل فإن "كانت هناك ترجمات فلإن هناك ثقافات ولغات، وما الترجمة إلا عمليات التحويل اللامتناهية، وإعادة الإنتاج الدائمة لهذه اللغات وتلك الثقافات."[39].

و الثقافة في علاقتها باللغة تكون ما نسميه عادة بالرؤية إلى العالم، وعلى الترجمة إذن، أن تعي – حتى لا نقول تلتزم – ذلك البعد الأساسي في النص الإبداعي والذي تدعوه الترجمة بالأيقونات* .. و لغتنا كما يقول جورج مونان " هي التي تنظم رؤيتنا للعالم، وأننا لا نرى من العالم غير ما ترينا لغتنا، مع كل ما تستتبعه هذه النظريات من عواقب تتعلق بنظرية الترجمة."[40].

إلى جانب الثقافة باعتبارها مجموعة من العادات و الرموز و الإيقونات، هناك مفهوم آخر يعطي للترجمة مشروعية أكبر ودورا أكثر أهمية من أي دور آخر، وهو مفهوم التثاقف** ذلك أن هذه الظاهرة الحضارية خلقت في الكثير من الأحيان وضعا ثقافيا و لغويا شبيها بالفعل الترجمي عندما يتحقق كتحول وإنتاج جديد للمعاني و الرموز و الدلالات والمعارف، فالتثاقف بهذا المعنى هو " الاستيعاب الثقافي، و التحول الثقافي والانصهار الثقافي(...) نقول

---

[37] ينظر عبد السلام بنعبد العالي. "الترجمة و الميتافيزيقا" في مجلة الكرمل عدد 17، 1985 ص178.

[38] نفس المرجع و الصفحة.

[39] عبد السلام بنعبد العالي: "دائرة الترجمة " في مجلة فكر و نقد عدد 11 م.س138.

* يعطي أحد الباحثين مثالا فيقول: "فهمي للحب لن يكون أبدا هو فهم الفرنسي له (...) وهي حالة دائمة لأن التواصل الجسدي يبطلها، ويعيدها إلى رمز آخر في لغتي و ثقافتي مثل الهوى، العشق، الغرام... إن أول صورة تولدها تلك الجملة في ذهني هي أيقونة (قيس و ليلى)." لمزيد من التفاصيل ينظر عبد اللطيف محفوظ " التمثل والترجمة: قراءة في نموذج مغربي." في مجلة فكر و نقد عدد 10 ص66.

[40] جورج مونان: "المسائل النظرية في الترجمة." ترجمة لطيف زيتوني م.س101.

** ظهر مفهوم التثاقف منذ 1880 في حقل " الإنتروبولوجيا " و فهم على أساس أنه يشير إلى ظواهر الصلات (Contacts)التي أقيمت بين حضارات مختلفة و إلى التداخل بين هذه الحضارات ... إن مفهوم التثاقف الذي جاء على وزن التفاعل يتضمن فكرة الانفتاح على الغير و ولوج عالم جديد، و التلاقح، و استقبال الدخيل. لتفاصيل أكثر ينظر فايزة قاسم ندوة " الترجمة و التلاقح الثقافي"69-76.

بالنسبة للحضارة الإسلامية مثلا، بأن ظاهرة الاستيعاب الثقافي بدأت تتكون انطلاقا من النصوص اليونانية إلى العربية في عصر المأمون.

إن الترجمة هي العملية التقنية اللغوية التي تنطلق منها العملية التركيبية المتشبعة التي هي توغل الوراثات والمعارف والذهنيات الآتية من الثقافات السابقة، إلى الثقافات العربية (...) والمعروف أن الغرب قد اكتشف من جديد أصوله الثقافية اليونانية عن طريق الترجمة من العربية إلى اللاتينية، مما يثبت لنا أن الاستيعاب الثقافي الذي عاشته الحضارة الإسلامية قد أحدث تحولا ذاتيا عالميا معا"[41].

IV- الرواية العربية والترجمة:

إن ترجمة الأيقونات والخصوصيات الثقافية والرموز والأساطير ... غالبا ما تحيل على جنس أدبي بعينه دون الأجناس الأخرى، وهو هنا " الرواية " بامتياز، لما لهذا الجنس الأدبي من خاصية أدبية وإبداعية، تجعل معها النص الروائي والكتابة الروائية فضاء ومساحة فريدة لاستيعاب كل تلك الأيقونات والخصوصيات، ويجعل بالتالي من الترجمة فضاء مضاعفا و مكررا لتحويل ونقل وإعادة إبداع نلك الأساطير والرموز الثقافية. إن الرواية بهذا المعنى جنس أدبي يلخص إبداعيا اللحظة الثقافية والحضارية في لحظة واحدة هي الكتابة لا غير، والرواية بتعبير أنتروبولوجي، وبعيدا عن الموقف النظري النقدي هي "الانتقال من حالة البراءة إلى حالة التجربة، وذلك الجهل الذي يعد بركة إلى الإدراك الناضج لسلوك العالم الفعلي."[42] .

ولا شك أن الثقافة العربية والأدب العربي لم يخلوا من هذه الظاهرة التي هي الكتابة الروائية، فمنذ عصر النهضة عرفت الرواية تطورا متواصلا وعكست بحق كل تلك الأيقونات الخاصة بالعرب دون غيرهم، كما عكست أيضا بصدق حياة الشعوب العربية إلى غاية تلك التجمعات الصغيرة سواء في المدن أو القرى، راسمة بذلك حياة الناس من عمال وحرفيين وبقالين، وموظفين صغار، وطلبة وفلاحين. إلا أن النجاح الحقيقي للرواية العربية لن يرتسم إلا بين الحربين العالميتين الأولى والثانية. لكن وقبل ذلك يجب الانتباه مع أندريه ميكائيل (André Miquel) إلى أن الذي سيعطي مكانة حقيقية للرواية في الأدب العربي، هي مرة أخرى ترجمة الأعمال الروائية والقصصية عن لغات أجنبية، وهي العملية التي لازالت مستمرة ومتواصلة إلى يومنا هذا[43] .

من المعروف أن العرب في بداية عصر النهضة، قد تأثروا كثيرا بالثقافتين الفرنسية والإنجليزية اللتين سيطرتا على حياتهم المختلفة، والتي ظهرت آثارها في تلك السلسلة الطويلة من الترجمات القصصية عن الفرنسية والإنجليزية. ولعل أكبر دليل على هذا التأثر هو أن معظم الروائيين مارسوا الترجمة أيضا، وكانوا كلهم ممن يتقنون اللغة الفرنسية – أو الإنجليزية أحيانا، وفيهم من عاش أو تعلم في أوروبا. وهكذا " أخذ العرب يتطلعون إلى نتاج الفكر الغربي الذي لعب دورا هاما في تحرير شعورهم وتطوير شخصيتهم ... وكانت القصة أول ما قابلوه أمامهم ... ولعلّ دنو هذه

[41] عبد المجيد مزيان في ندوة " الترجمة و التلاقح..." ص 74.

[42] مورس شرودر و آخرون: " نظرية الرواية، علاقة التعبير بالواقع." ترجمة محسن جاسم الموسوي، منشورات مكتبة التحرير، بغداد 1986 ص14.

[43] للإطلاع أكثر حول أهم مراحل الرواية العربية ينظر .André Miquel: “ la Littérature arabe” Edition PUF Paris 1969.

القصة من المنابع الشعبية واستجابتها لرغبات القارئ العادي، كان سببين مهمين في إيثار الكتاب لها، وتفضيلها عن غيرها من ألوان الأدب"[44].

نستنتج إذن مما سبق ، أن العرب قد تأثّروا بالفن الروائي الغربي بواسطة طريقتين: طريقة الترجمة وطريقة الاتصال المباشر لا سيما بالنسبة للكتاب الذين أتيح لهم إتقان لغة أجنبية أو أكثر. لقد كان الكتاب العرب ظمأى للنهل من الثقافة العالمية دون أن تكون هناك خطة منظمة للاقتباس. ومن الطبيعي أن يستهويهم من هذه الثقافة ما كان أقرب إلى نفوسهم وأسهل تناولا .

والواقع أن القراء العرب قد وجدوا في هذه الترجمة عونا كبيرا على الاطلاع على الآداب الأجنبية ، فلقد قرؤوا الروايات المترجمة في الصحف والمجلات التي بدأت تنتشر في كل العواصم العربية ...وقد حاولت هذه المنشورات أن تسترضي جماهيرها بهذا القصص المترجم الذي كانوا يتقبلونه تقبلا حسنا لما يجدون فيه من المتعة والتسلية[45] . ورغم أن رائد الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث جرجي زيدان(1861 -1914) كان سباقا في هذا الميدان من خلال أعامله التي خصها لكبار الوجوه و الشخصيات الإسلامية في تاريخ الإسلام القديم و الحديث، فإن مصطفى لطفي المنفلوطي(1876-1924) برز بحق أول ناقل ومترجم وملخص لأعمال روائية أجنبية مثل (شاطو بريان) (Chateau -briand) و(بيرناردان)(Bernardin).

والواقع أن العرب قد ترجموا في القرن التاسع عشر، والنصف الأول من القرن العشرين، روايات كثيرة لكنهم كانوا يستهترون بأسلوب السرد...كانوا يكتبون بلغة هزيلة، لا تخلو من الأخطاء...أضف إلى ذلك أنهم كانوا لا يتقيدون بالنص الأصلي. بل كثيرا ما كانوا يشوهون الأسلوب ويمسخون الحكاية بإضافاتهم وإيجازاتهم وتدخلهم ...لكن هذه الترجمة على الرغم من مساوئها وعيوبها فلقد أفادت العرب كثيرا إذ علمتهم كيف يكتبون الرواية، ولقنتهم أساليب السرد المختلفة.

ولئن اتسمت الترجمة قبل الحرب العالمية الثانية بالفوضى وانعدام التخطيط وغياب الهدف ، فلقد تطورت في الخمسينات و الستينات أيما تطور . وقد لا نشك في أن تعليم اللغات و تأسيس الجامعات وتطور الصحافة وغيرها من العوامل التي ساعدت على تنشيط حركة هذه الترجمة كما وكيفا ، وقد قامت بعض الحكومات العربية(مصر، سوريا، لبنان، العراق) بوضع الخطوط العامة لتنظيم الترجمة كما شجعت الكتاب على اختيار أعمال أكثر جدية وبذل مزيد من العناية بمستوى الترجمة .

وما يلفت الانتباه خلال هذه الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية، أن المكانة المرموقة التي احتلها الأدبان الفرنسي والإنجليزي سابقا أخذ بالتنحي جزئيا فاسحا المجال للأعمال الروائية الألمانية والأمريكية والإسبانية، ومع أواسط الستينات اهتمّت العديد من الدول العربية (الجزائر، المغرب، تونس، السعودية ودول الخليج...) بحركة الترجمة،

---

44 محمود يوسف نجم: " القصة في الأدب العربي الحديث." دار الثقافة بيروت 1966 ط3.ص13.

45- ينظر المرجع السابق 13-15.

الأمر الذي أدى إلى ازدياد عدد الروايات المطبوعة، وتنوع مصادر الترجمة، وبالتالي تنوع الكتب المترجمة. فإضافة إلى الكتاب الفرنسيين والإنجليز بدأنا نسمع أسماء مهمة أخرى مثل كافكا ومورافيا وطوماس مان وغارسيا ماركيز .

و هكذا تنوعت الترجمة الأدبية في العالم العربي وتعدّدت : فمن الميتولوجيا الإغريقية إلى الأدب الفرنسي إلى الأدب الإنجلوسكسوني إلى الأدب الأمريكي – اللاتيني.